الموت والقيامة

ومعتقد الاولين فيهما

ملخص من كتاب الفيلسوف هربرت سبنسر في مبادىء علم السيولوجيا بقلم نسيم افندي مراري

يظن عامة الناس وبعض الخاصة ايضاً ان التمييز بين الحي والميت امر سهل جداً وان الاولين كانوا يحسبون الموت حادثاً طبيعياً ويعدونهُ نهاية كل حي في هذه الدنيا كما نعدهُ نحن . الاَّ ان شواهد الحال تدل على ان التمييز بين الحي والميت ليس بالامر السهل دائماً فقد دُفن كثيرون احياء وحسب غيرهم موتى وكادوا يدفنون ثم ظهر انهم لا يزالون في قيد الحياة . هٰذا عند المتمدنين الذين بلغ العلم عندهم مبلغاً عظيماً فكم بالاولى يكون المتوحشون عرضةً للخطاء في هٰذا الامر فان تنقلهم الدائم يمنعهم عن الاختبار الكافي والاستقراء الطويل اللازمين لادراك ماهية الموت وكونهِ انتهاء الحياة

ويحسب المتوحشون النوم والاغماء والموت من قبيل انفصال النفس عن الجسد انفصالاً وقتياً تختلف مدتهُ بحسب نوعهِ . فاذا رأوا النائم والمصروع يستيقظان بعد ساعات معدودة قالوا ان الميت يستيقظ ايضاً من رقادهِ ولو طال عليهِ المدى . وقد يحدث ان يستيقظ واحد وقت دفنهِ او وقت حرقهِ ولاعتقادهم انهُ كان ميتاً يقولون ان الميت لا بدَّ ان يُبعث عاجلاً او آجلاً . ومما يؤيد ذٰلك ان بعض قبائل افريقية الجنوبية يعدون الموت نوماً واهالي تسمانيا يدفنون ريحاً مع الميت ليحارب بهِ وهو نائم حسب زعمهم . والدياك سكان جزيرة بورنيو وهم من اكثر المتوحشين ادراكاً لا يميزون بين الموت والحياة . وقبيلة التودا في جنوبي الهند تعتقد ان الحياة تعود الى الجسم الاَّ اذا حلَّ بهِ الفساد . وقبيلة التوبس تربط ارجل الموتى وتشد وثاقهم لكي لا يقوموا و يقلقوا اهاليهم

فهؤلاء الاقوام ومن نحا نحوهم يعترفون بقيامة الموتى اعترافاً صريحاً وغيرهم يعترف بها ضمناً كما يظهر من عاداتهم الدالة على ذٰلك . وبديهي ان الاقوام المتوحشين الذين يحسبون الموت نوماً يستيقظ صاحبهُ منهُ يستخدمون كل الوسائل لايقاظ الميت . روى الرحالة الكستدر ان رجلاً من قبيلة الارواك في اميركا الجنوبية مات اخوهُ فجعل يضربهما ضرباً شديداً ويخص اعينهما ووجهيهما بالشوك ليستيقظا . وروى غيرهُ ان الهوتنتوت في جنوبي افريقية يبثون معاملة المحتضرين والمتوفين حديثاً يلومونهم لرحيلهم عنهم . ولقد كان الغرض من مناداة الاموات ارجاع

ارواحهم الغائبة ثم صار يُقصَد بها ترضيتهم لجلب خير او دفع ضرّ . فاهالي جزائر فيجي يظنون انهم اذا نادوا الميت رجعت اليهِ روحهُ . واذا تُوفي احدٌ في جزائر ساموى ذهب اهلهُ الى الكاهن باهدايا وتوسّلوا اليهِ ليجبر الميت على الاعتراف بالخطايا التي اوجبت موتهُ فيحيا . وذكر موفات المبشر الشهير عن قبيلة البكوانامس في جنوبي افريقية انهُ اذا توفي احدهم اتت امرأة عجوز بادعتهِ الى القبر ورمتها عليهِ قائلةً "خذ امتعتك كلها" . وامثلة ذلك كثيرة

ولا يقتصر المتوحشون على مخاطبة المتوفين حديثًا بل ينادون الذين ماتوا منذ زمان . فالملغاسيون سكان مدغسكر ينادون الميت اولاً بشدة ثم يدخلون بهِ المقبرة ويخبرون سائر الموتى الذين فيها بقدوم صديق لهم ويوصونهم بالاحتفاء بهِ . وكان شيان بيرو باميركا اذا انتظموا في مصاف الجنود يطلبون الى جثث اسلافهم المحنطة ان تجعلهم ابطالاً في اللقاء وتؤتيهم النصر

ولا يستغرب القارئُ شيوع مثل هذه المعتقدات ما دام اصحابها يحسبون الموت نوعًا من النوم . ولما كان الصباح يوقظ النائم او المصروع استعملوهُ في ايقاظ الموتى ايضًا ثم رسخت عادة مناداة الميت حتى بين الامم التي لا تعتقد الآن بالبعث العاجل

وقد انتج الاعتقاد بالقيامة من الموت عادة اخرى عدا الصياح والمناداة وهي تقديم الطعام والشراب للموتى وادخالها في افواههم احيانًا . ذكر كوك ان اهالي جزيرة ارو يملأون افواه موتاهم بالمآكل والمشارب حتى تسيل على الارض واذا مات احد الاشراف في جزيرة تاهيتي أقيم كاهن على خدمتهِ وتقديم الطعام لهُ في اوقات مختلفة مدة النهار . ولما كان القصد من ذلك تجهيز الميت بطعام يذخرهُ لوقت الحاجة جرت عادة قبائل كثيرة ان يضعوا الزاد في القبر او عليهِ . وهذا شائع في كل المسكونة حتى عند بعض القبائل التي تحرق موتاها وحرق الموتى ينفي الاعتقاد بالقيامة كما لا يخفى ولذلك فتقديم الطعام لهم عند الذين يحرقون موتاهم دليل على ان الاعتقاد بقيامة الجسد كان شائعًا عندهم قبلاً

ثبت معنا مما تقدم ان جمهور المتوحشين يقول برجوع النفس الى الجسد الذي غابت عنهُ ولذلك تُقدَّم لهُ المآكل حتى تجد النفس الغائبة طعامًا لها عند رجوعها اليهِ . بقي ان ننظر في ما اعتقدوهُ عن طول هذا الغياب

رأى الاولون ان نفوس النائمين والمصروعين ترجع اليهم بعد بضع ساعات او بضعة ايام ثم بحثوا في امكان رجوعها بعد اسابيع او اشهر وطلبها للطعام . ولما لم يكن لهم اخبار يرجعون اليهِ جروا على اسلم الطرق عاقبة وهو تقديم الطعام للموتى دائمًا او زمانًا طويلاً . فبعض قبائل

الهند الاصليين يضعون الطعام يوميًّا امام جثث موتاهم وبعض قبائل اميركا الاصليين يضعون الطعام على قبور اصدقائهم كلما مروا بها . ذكر مكولكرفت الرحالة ان هنود اميركا الشمالية يولمون الولائم على قبور موتاهم مدة سنة لاشباع النفوس النائبة . وكان اهالي المكسيك يضعون الطعام على القبر كل يوم مدة العشرين يومًا الاولى ثم يكررون ذلك مرة كل ثمانين يومًا . وكان اهالي بيرو ينحون القبور ويغيرون الملابس التي على الجثث ويقدمون لها الطعام . وذكر بادرو يزارو انهم كانوا يخرجون مومياات اشرافهم كل يوم ويطعمون لها المآكل الفاخرة . ومن هذا القبيل ما يفعلهُ بعض القبائل الآن من اشعال النار في الليالي الباردة على قبور موتاهم لتدفئتهم ووضع جثثهم على مكان عالٍ عوضًا عن دفنها تحت التراب ليسهل عليها التنفس واستنشاق الهواء النقي

ولا يخفى ان الاعتقاد بالبعث على ما كان عند الاولين يقتضي بقاء الجسد في حالة صالحة لرجوع النفس اليهِ ولهذا اعتنوا كثيرًا بحفظ اجساد الموتى . والشواهد على ذلك كثيرة منها ان بعض المتوحشين يرمون المذنبين في البراري لتبتلعها الوحوش ظنًّا منهم ان ذلك يعدم الجسد فلا يبقى للنفس مأوًى ترجع اليهِ . ومنها ما يعلم من اساليب المصريين الاولين وهو انهم كانوا يعتقدون ان اعدام الجثة اعظم قصاص لها لانهُ يمنع رجوع نفسها اليهِ . وكان اهل زيلاندا الجديدة يقولون ان اكل جثة العدو يعدمهُ الى الابد . ونساء قبيلة ما تيامبا يغرقن جثث ازواجهن في الماء ظنًّا منهن ان ذلك يغرق نفوسهم ايضًا فلا يتعبونهن في المستقبل

وحفظ الجسد يقتضي الاعتناء بهِ وابعادهُ عن كل ما يضرهُ . فالبعض يحفرون قبور موتاهم بزرع الاشجار فوقها . وغيرهم يضعون عظام الموتى في صناديق على رؤوس الجبال حتى يتعذر الوصول اليها . وكان كهنة زيلاندا الجديدة يأخذون عظام الموتى سرًّا ويدفنونها على رؤوس الجبال او في الغابات والكهوف لكي لا يهتدي اليها احد . وبعضهم يدفنون رؤساءهم في قاع النهر فيحولون المياه عن مجراها ثم يعيدونها اليهِ . وبعض اهالي جزائر البحر المحيط يرفعون الجثث على ابنية عالية لكي تستطيع النفس . وهذه العادة شائعة عند كثيرين من سكان اميركا الاصليين . اما متوحشو القارات الشرقية فلم يعتنوا براحة الجسد بل بحفظهِ من الطوارىء واحتمالهِ عن الوحوش والانس والجن ولهذا سبب ما نراهُ من اقامة الرجم على القبور او تسويرها بالاشواك

ويظهر ان اقامة الرجم فوق القبور كانت اصلاً لغرضين . اما لمنع الجسد عن الخروج من القبر عند رجوع النفس اليهِ واما لزيادة الاحتفاظ بهِ . وقد روى السياح عن كثير من

القبائل انهم يقيمون الرجام اكراماً لموتاهم وان طول الرجمة يتوقف على قدر المتوفى ومنزلته. فبعد ان كانت الرجم لحفظ الجسد فقط صارت دليلاً على الاكرام وبعد ان كانت كومةً من التراب الباقي بعد دفن الجسد صارت اهراماً عظيمة كالاهرام المصرية

وقد اهتم جميع طوائف النساك الى الجسد ويحفظهِ كاملاً ما امكن لكي تجدهُ النفس صالحاً للاقامة فيهِ عند ايابها وهو ما فعلتهُ قبائل المتوحشين بعد ان تقدمت قليلاً في مضمار الحضارة. فالمصريون كمتشعر التحنيط واهالي المكسيك كانوا يضعون العظام في سلال ويعلقونها برؤوس الاشجار لكي تهتدي اليها النفس وقت رجوعها. روى هاسيلاسو ان اهالي بيرو اخبروهُ انهم يحفظون ما يقصونهُ من شعورهم وما يقلمونهُ من اظافرهم لكي لا يضيعوا في التفتيش عنهُ وقت القيامة حينما يكون الجميع في هرج ومرج. وقبيلة الشباس في اميركا كانت تجفف الاجساد على نار خفيفة حفظاً لها من البلى. وذكر الرحالة اكوستا انهُ رأى جثة احد اشراف بيرو وقد دهنوها بالقطران فظهرت كانها في قيد الحياة

وشعائر الحداد الشائعة عند كثير من المتوحشين كقص الشعر وادماء الجسد ونحو ذلك من ضروب المجاملة مع الميت تدلُّ على الاعتقاد بالبعث. فقد جاء في اشعار هوميروس انهُ عند وفاة بتروكلس وضع اخلص صغيرةٍ من شعرهِ في يدهِ واعدّ اياهُ بالانتقام من قاتليهِ وبموافاتهِ الى العالم الجديد. وكأنهُ اراد بالضفيرة ان تكون عربوناً على اتمام وعدهِ لانها جزءٌ منهُ. وروى بعض السياح ان قص الشعر عند وفاة عزيز او قريب شائعٌ في جزائر زيلاندا الجديدة وهاواي ومدغشكر وغرينلندا وعند كثير من القبائل شرقاً وغرباً. والقصد من ذلك ارضاء المتوفى حينما يبعث واظهار الخضوع لهُ كما يتضح مما ذكرهُ بركارت من ان العرب يجزون نواصيهم عند وفاة والديهم دلالة الحزن والاكرام. ومن على ذلك عادة المتوحشين في تجريح الجسم وصلم الآذان وهتم الاسنان وتقديم الذبائح البشرية على قبور الرؤساء فان الباعث عليها كلها ارضاء نفس المتوفى

وخلاصة الامر ان الاولين كالمتوحشين اليوم كانوا لا يرون فرقاً بين النوم والصرع والاغماء والموت بل حسبوا سببها كلها انفصال النفس عن الجسد انفصالاً وقتياً تختلف مدتهُ بحسب نوع الفيزيولوجية. ولما كانت نفس النائم تعود اليهِ بعد ساعاتٍ او ايام معدودة انتظروا رجوع نفس الميت من ساعةٍ الى اخرى وقدموا الاكل لجسدهِ يومياً ثم اطالوا الفترات بين المرة والاخرى تدريجاً حتى اذا ارتقى العلم وادرك الناس كنه الموت اعتقدوا بغياب النفس عن الجسد الى ما شاء الله